الرئيس الوزير إدوار هريو
رجل الأدب
بمناسبة زيارته لمصر

للأستاذ عبد العزيز عزت

هناك ثالوث من المعارف لا تنفصم أجزاؤه، إذا تحقق فى رجل كانت له صفة الإنسانية الخالدة؛ هــــذا الثالوث هو الفلسفة والسياسة والأدب؛ ذلك لأن الفلســفة تصقل الفــكر إلى درجة يرتفع بهــا عن اضطراب مفردات الوجود الجزئية، إلى نوع من التجريد العقلى تنفذ به القريحة إلى صميم الأصول التى تحدد الأشياء فى جوهرها الدائم، واقعية كانت أم فرضية. والسياسة ضرب من المعرفة أخطأ مكيافللى فى تعريفها حين قال: «إنها وسيلة للـكذب والخداع»؛ لأنها عند المفـكر الأول للبشرية أفلاطون الالٰهى — إذ استعرنا لغة الفارابى —: هى وسيلة لتحقيق منطق العالم فى مجال عالم الاجتماع الإنسانى، فيسوده نوع من الانسجام يوجب استقرار النظام فيه؛ وتتحقق فيه «ذروة» الـكمال فتستقيم حياة الإنسان. لهذا كانت السياسة هى بيت القصيد فى فلسفة أفلاطون، وكانت «المدينة» كنظام اجتماعى — إذا استعرنا لغــة فستيل دى كولانج — هى المحور الأساسى الذى تدور حوله فلسفات الاغريق فى العهد القــديم. والأدب، يكفى لتعريفه أن يلق القارئ نظرة إلى جدول موضوعاته فى مؤخر كتاب العلامة الـكبير لانسون عن «الأدب الفرنسى» ليرى انفهاق نواحيه والتى فى صلبها الفلسفة والسياسة؛ وذلك لأن الأديب يجب أن يعيش لتحقيق فـكرة معينة فى مجتمع معين، وتأكيد مذهب ونزعة واضحة فى الفكر لا يحيد عن دعمها مرة واحدة فى بلد من البلاد، وإلا كان قلمه رخيصاً لا قيمة لما يسطره فى أسواق الأدب الرفيع؛ لأن الأدب إذا قام على العجز فى الإبصار والإدراك بمعنى أن يذهب الأديب إلى ترديد «الماضى» دون أن تدفع به عين التفكير فى حركتها إلى الأمام، كان أدبه مستذلاً تسوده النزعة التاريخية، لا يبصر قارئوه أبعد من أنوفهم؛ وإذا نظروا خلال ذلك الأدب لن يروا أمامهم إلا سراباً. وثانياً ينتاب هذا الأدب العجز فى الإدراك بمعنى انعدام الخلق الوطنى فيه، بأن يعمد واضعوه إلى تقليد الأجانب فى أدبهم معتمدين فى ذلك على الترجمة والاقتباس، فيكون بذلك أدباً «قردياً» كله المحاكاة والتنافر مع أولى إحساسات أهل الوطن، لأن الأدب كأساس نتاج فكرى يتعلق بالمشاعر والعواطف، فهو خاص له لون معين يشتق من طبائع الأمم ومميزاتها. (إقرأ كتاب فكتور هوجو وعنوانه «الأدب والفلسفة» وأيضاً ما كتبته مدام دى ستايل عن الأدب والسياسة)

فالفلسفة، والسياسة، والأدب، تتميز بعضها عن بعض ولـكنها لا تنفصل، «كالمثلث» إذا ضاع أحد أضلاعه، انعدمت وحدة الوجود الهندسى فيه. كذلك «الرجل» بالمعنى الأدبى هو ذلك الهيكل الفكرى الذى تحقق فيه المعارف الثلاث. وليس فى عصرنا هــذا رجل يتمثل فى شخصه ثالوث هذه المعارف الثلاث وانسجامها كالرئيس هريو، فهو بحق رجل الفلسفة والسياسة والأدب

أما عن فلسفته: فمذهب يسعى إليها عند مفكر مصرى هو فيلون الأسكندرى الذى جعل منــه موضوعاً لـكتاب طريف يمثله فى حياته الأولى. وفى دراسته هذا الفيلسوف أكبر دليل على تحقق صفة الرجولة والإنسانية فيه، لأن فيلون يوحد فى شخصه وفى انسجام تام عناصر فـكرية مختلفة النزعات، فهو يهودى النشأة، مصري المشاعر، يونانى الثقافة. هو عالَم مستقل بذاته يتوسط بين العالم اليونانى القديم، وبين عالم التفكير فى القرون الوسطى. ففى دراسته إلمام بما تقدم وما تأخر من

المعارف فى تطور التفكير عند بنى الإنسان حتى ظهور العهد الحديث . وفى دراسته أيضاً توفيق بين الإلهام والعقل وبين عالم الشهادة وعالم القداسة ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقلية اليونانية والعقلية الشرقية . وبفضله أصبحت الأسكندرية العامرة ، منارة العلم ومنبع النور فى الايمان والتجريد الفكرى . فاهتمام الرئيس هريو بفيلسوف كهذا يدل على مبلغ ما هو عليه من العلم الغزير وسعة الاطلاع ، وحاسة « توحيد ما اختلف » مما ساعده وأهله ليكون رئيساً لمجلس النواب الفرنسى يقيم الانسجام بين ما تباين من نزعات الأحزاب ، وأهواء السياسة ، وجموح مناقشاتها العسيرة ، لتسير فى هدوء إلى سبيل الحق الذى يعلو على شهوات التخصيص الضيق فى أصول الحكم

وهو في كتابه هذا يعرض أولاً لمقارنة يهودية التوراة فى عهد فلسطين بالمعتقدات اليونانية ، ثم مقارنة يهودية الأسكندرية — وكفرع — بنفس تلك المعتقدات الإغريقية ؛ وفى موضع ثالث يتطرق إلى تحليل منهج فيلون وآرائه الثابتة فى مجال الإلهيات ، فيعرض لنظرية التأليه عنده ، وتحديد فهمه لطبيعة الأفكار والأعداد ، ويثبت تأثره بفلسفة الفيثاغوريين ؛ ثم ينتقل بالكلام أو شرح جوهر النفس وتشعب نشاطها ، وعلى الخصوص وصف حياتها « القابلة » التى تتمثل فى انفعالاتها وشهواتها الثائرة المريضة ، ثم يعرض إلى مذهبه فى الأخلاق وطبائع الفضائل وأصول التخلق فى الحياة وما بعد الحياة ، ثم يشرح أخيراً آراءه فى السياسة ، فينقد مبادئ الاستبداد والتزعم الجامح

وأما عن أدبه : فهوأدب بنى على النبل والورع ؛ لم يقصد به فرض وهم فى الزعامة على الأدب فى فرنسا ، لأنه يعرف أن الزعامة تاج يكلل به الناس رؤوس من يتوسمون فيهم أهلية هذه الزعامة ، فهى « تسمى » إليهم ، دون أن تفرض على الناس فرضاً . وعهده الزعامة لم تقم يوماً ما على الغرور الفكرى ، ولا على مهاجمة الناس فى معتقداتهم وأديانهم ؛ ولم يكن التجديد فى الأدب يوماً هو الانسلاخ عن تراث الآباء والأجداد والذهاب لما يحجه ذوق البلاد من التواء وغموض فى التصور عند الفرنجة ، وإنما هو الاقرار بفضل من تقدم من السلف الصالح ، وفهم الحاضر الفكرى فهما يكفل الانتاج المقبل في المستقبل القريب . فبهذا تحفظ روح الأمة ومشاعرها ، صافية من غير امتزاج ، وتسير إلى الأمام فى غير ما ترقيع ولا ابتذال

لهذا ذهب الرئيس هريو إلى أدب قومه ، واختار من بين فتراته حقبة من الزمان هى الحد الفاصل بين نوعين فى الأدب الفرنسى : نزعة المحافظة على القديم التى تتمثل فى أدب القرن السابع عشر الميلادى عند راسين وملير وبوالو ، ونزعة « الإصلاح » فيه عند كتاب القرن الثامن عشر مثل روسو وفلتير ومنسكيو . هذه النزعة الثانية نزعة « حربية » لم تنسجم وطبيعة التفكير الأدبى ، فقضت على الأدب « الرفيع » بثورتها ؛ لأن مجاله أصبح مهزلة لتراشق خطباء الثورة بما يحجه كل ذوق أدبى سليم ، ويأباه كل عُرف فى التصور والتأدب . وفضت عاصفة السياسة على الاستقرار الأدبى ، وحرمته الخضوع لمذهب واحد معين يمثل مشاعر أمة واحدة معينة ، له لونه وصبغته الخاصة ، وأصبحت أقلام الأدباء كسهم الريح فى أعلى المنازل تعصف به الزوابع فى كل اتجاه ، فهى تباع وتشترى بيع الأنقاض فى أسواق السلع البائسة ، تدور وتتذبذب فى سائر الأحزاب ، دون استقرار محدود على مبدأ واحد ثابت لا يتغير

هذه الفترة التى ذهب إليها الرئيس هريو هى مبدأ القرن التاسع عشر ، إذ هدأت عاصفة الثورة الفرنسية بأدبها « الوهمى » وإذ ابتدأ ظهور المذهب الرومانتيكى أى « التخصيص فى الأدب » (بمعنى أن يكون للأديب مسحته الخاصة الغالبة وحريته الكاملة فى تصوير وتسطير ما يشاء ويهوى ، دون أن يخضع مثلاً لقانون الوحدات الثلاث الذى نجده مثلاً عند راسين ، والذى يتأثر هو فيه بتعاليم اليونان ، وخاصة أصول « التراجيدى » عند أرسطو وسوفكليس وأوربيدس فى العهد اليونانى القديم) ، بفضل ما كتبه شاتوبريان ، وعلى الخصوص الشاعر الخالد فكتور هوجو فى « مقدمته » لرواية كرمويل . واختار الرئيس هريو من أدباء هذه الفترة مدام دي روكامييه ، كموضوع لرسالته الكبيرة لدكتوراه الدولة ، ومدام دى ستايل ، كموضوع لرسالته الصغيرة

كانت الرسالة الأولى من الضخامة بحيث طبعت فى جزئين ،

واضطر الرئيس « هريو » أن يعيد طبعها « مخفضة » عند « بايو » لتكون فى متناول كل قارئ مثقف ، بعد أن حذف كثيراً من « الهوامش » التى ما كانت فى واقع الأمر إلا « زينة » فى رسائل مدرسة السربون ، وغرضه الأول فيها لم يقتصر على دراسة هذه الأديبة وتحليل شخصيتها فى ذاتها ، بل كان مع ذلك دراسة الروح العامة للأدب فى ذلك الزمان ، وحل المناسبات الاجتماعية التى ساهمت فى نضوجها الفكرى . وليس أدل على صحة كلامنا من عنوان الرسالة نفسها وهو : « السيدة ركاميه وأصدقاؤها » . والغرض الثانى إثبات أثر مدينة ليون التى ولدت فيها هذه السيدة فى تكوينها الأدبى ، والحياة الأدبية لهذه المدينة خلال ما كتبته

عنها فى زياراتها المتعددة لها فى ذلك العهد . والغرض الثالث هو شرح أهمية اتصالها بمؤسس مذهب الرومانتيزم شاتوبريان وما كان له من الأثر فى توجيه تفكيرها الأدبى والسياسى

والرسالة الثانية ، تعرض للصداقة المتينة التى كانت بين السيدتين ركاميه ، ودى ستايل ، واتحادهما فى نزعة العداء ضد مبادئ نابليون بونابارت . فهي رسالة تبحث أيضاً في أدب نفس ذلك العهد وفى نفس الجو الأدبى ؛ غير أنها تمتاز بكونها شرحا لبعض مخطوط لم يطبع حتى ذلك التاريخ ، يوجد في المكتبة الأهلية بباريس فى نحو ٢٩٧ صفحة بعنوان « منتخبات لآراء سياسية » فيها تعرض مدام دى ستايل عن « حلمها » السياسى وهو إمكان تحوير مبادئ الدستور القائم إبان ذلك ، وإحلال جمهورية تثبت على أصول العقل . فى القسم الأول من هذه « المنتخبات » تشرح مبادئ الثورة والشروط اللازمة لتحقيق مبادئها . وفى الجزء الثانى تعرض للأصول العامة العقلية لإمكان تحقيق الجمهورية . وفى القسم الأخير تبسط أهمية أصول العقل فى تغيير الحالة العامة فى فرنسا فى ذلك الحين . فهى بهذا المخطوط تكتب على طريقة أفلاطون فى « جمهوريته » فترسم فرضاً سياسياً وإن كان يسوده الخيال ، إلا أنه مع ذلك يحدد لنا نزعاتها الخاصة فى الحكم ، وكيف أنها تميل فى نزعاتها إلى نوع معين من الديمقراطية لا تبنى مباشرة على مبادئ الثورة الفرنسية بل على أصول التفكير والعقل الخالص

أما عن سياسته : فنقول إن السياسيين فى أغلب أمم الأرض فى زماننا هذا هم أكثر الناس جهلا بالسياسة وأصولها ، وهذا الجهل راجع فى نظرى إلى أن السياسة أصبحت مجالاً للدجل والتهريج لا يطرق بابها إلا أصحاب الفراغ والجدة فى كل شىء . ومن ادعى من رجالها العلم والفهم فى مجالها ، رجع فى علمه وفهمه هذا إلى مفكرى العصر الحديث ، أولئك الذين يشرعون باسم المادة والاقتصاد ، مع أن السياسة عند أهلها من آباء التفكير وخاصة أفلاطون الإلهى ، تقوم على فهم طبيعة الانسان الخاصة وتخلقه . لهذا كانت السياسة هى بيت القصيد فى الفلسفات القديمة وكانت تتضمن دراسة هذا العلم ، ودراسة الآداب ، وعلى الخصوص دراسة الأخلاق ؛ وكان لا يمكن أن يسمى الرجل « سياسياً » إلا إذا بلغ الخمسين من عمره ، بعد أن عرك الحياة ووقف نظرياً وعملياً على طبائع الناس وتضارب ميولهم ، وتباين تخلقاتهم ، وأضاف إلى علمه بجوار منطق العقل ، منطق الحياة . أما اليوم فهى لا تلم إلا « القش » « والرماد » فى كل هيئة اجتماعية من الذين يؤمنون بما يوحى إليهم رجل كمكيافل أن السياسة هى « مكر ولؤم وخداع » ، عوضاً من أن تكون « فلسفة ، وأدبا ، وأخلاقا »

لهذا كان الرئيس هريوليس من المحدثين فى السياسة ، لأنه يسير وتعاليم اليونان القدماء ، فهو لم يتعجل أن يطرق بابها ، فيصيبه ما يصيب أهلها الآن من ابتسامات تقديرية لو فهمها الرجال

منهم لاحرت لها وجوههم . فبعد أن مهد لنفسه النضوج الفكرى بثقافة جامعة واقية فى الفلسفة والأدب ، طرق مجال الخدمة الاجتماعية عملياً فى عمادة مدينة ليون ، فأثبت ماهو أهل له من العلم ، وإحكام الادارة ، وتصريف أمور الحياة بين الناس ، حتى إذا كان فى نحو الأربعين من عمره انتخب مباشرة عضواً فى مجلس الشيوخ الفرنسى عن منطقة الرون ، متخطياً مجلس النواب ، فكان أصغر عضو في ذلك المجلس عام ١٩١٢ ؛ ثم تطرق بعد ذلك إلى منصب الوزارة ، ثم إلى رياسة الوزراء ، ثم إلى رياسة النواب ، فكان فى كل مرحلة منها « الفيلسوف العادل » ، « الموحد لما اختلف » . ولعب بجوار ذلك دوراً لا يستهان به فى تنظيم الحياة الداخلية لأمته إبان الحرب العظمى عندما ولاه الرئيس الوزير بريان وزارة الأشغال والمواصلات والمؤونة ؛ ويمكن أن يتصور خطر هذا المنصب ، والقتال قائم على قدم وساق

وباعتباره « عمدة » لمدينة ليون ، يكفى هذا أن يرفع نظر المصريين إليه ، لأن لهم فيها ذكريات تتعلق بتاريخهم فى العهد الحديث . فالرجل الذى قاد الجنود المصرية فى ساحة الوغى ، وأثبت للعالم سمو الروح الحربية عند المصريين ، ووضع أسس الامبراطورية المصرية ، هو القائد سيف Sève أو سليمان باشا الفرنساوى الذى ترك وطنه فى مدينة « ليون » ، بعد انهزام نابليون ، ليعمل لحساب مؤسس الأسرة العلوية الكريمة ، فكان عند حسن ظن محمد على باشا فيه ؛ فحقق ما رسم له خالق مصر الحديثة ومشيد عظمتها . كذلك ساهمت ليون بعلمائها الأعلام وعلى الخصوص الأستاذ لامبير فى خلق مدرسة للفكر فى مصر تتمثل فى ذلك الشباب النابه الذى ورد شرعة العلم من سنين فى هذه المدينة ، والذين أصبحوا الآن من قادة الفكر فى مصر ، فى الفلسفة الإسلامية ، وفى عمادة الحقوق ، وفى بطولة المحاكم المختلطة ، وفى زعامة المحاماة والثقافة . والجميل فى أمر هذه المدرسة ، أن أهلها يعملون على إعلاء كلمة الوطن فى نبل وهدوء وورع ، دون أن يتخذوا من العلم سبيلا وضيعاً لمهاجمة معتقدات أهل البلاد ودينها ، وتصويرها فى حفلات عامة كقبائل المتوحشين لا هم لساكنيها إلا التفكير فى المأكل والمشرب كما يفعل هذا الكثير من متخرجى السربون وجامعة باريس ، وهو ما لا يليق بشباب يدعى الثقافة والفهم ، ومكتوب على جواز سفره أنه « مصرى » ! ؟

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٦ —

خرجت من منزل ليلى نشوان ، نشوان إلى حد الجنون . والمرء فى العراق لا يكون إلا فى حالين اثنين : حال تحدثه فيه النفس بالغرق فى دجلة من الفرح ، وحال تحدثه فيه النفس بالغرق فى دجلة من الغيظ . فالمرء فى العراق إما أن يكون سعيداً كل السعادة ، وإما أن يكون شقياً كل الشقاء

وكذلك حال ليلاى ، فهى قد ترقّ وتلطُف فأدخل دارها بُعَيْد الغروب ولا أخرج إلا قُبَيْل الشروق ؛ وقد تقسو وتعنف فتطردنى من دارها بلا ترفق ولا إشفاق

خرجت من منزل ليلى نشوان ، فقد رضيتُ عنها ورضيتْ عنى ، ولكن الحادث الأخير ترك فى القلب عقابيل ، فأخذت أحترس ، وهل يتفق الحب والاحتراس ؟

نعم يتفق الحب والاحتراس ، ولكن يضيع النعيم . فالمحب المحترس يشق بنفسه ، ولكنه لا يثق بمن يحب ... وليلى بدأت تعد ذنوبى ولكن من أى تاريخ ؟ منذ اليوم الذي اطمأنت فيه إلى عودة العافية !

فمن أنا في دنياى ؟ من أنا فى دنياى ؟

لقد كنت أرجو أن تعمى ليلى عن عيوبى ، ولكن هكذا كنت فى حياتى ، فما أذكر أبداً أنى عانيت الظلم إلا على أيدى ناس أحببتهم واستقتلت فى الدفاع عنهم . كنت كالسيف يلقيه صاحبه بعد أن يفله القتال . كنت كالغصن المثمر يؤخذ للوقود بعد انتهاب ما يحمل من ثمرات . كنت وكنت ، فما أشقانى وما أعظم بلائى !

كذلك دار رأسى وأنا ماض إلى قطار البصرة . وما أدرى كيف صاغ الله عقلى على هذه الصورة ، فعقلى لا يغفو أبداً ؛ وهو دائب على الدرس والتحليل ، وليس من الزهو أن أذكر أن أعظم ما يساورنى من المعضلات الفلسفية أهتدى إلى حله فى أحلامى ،